الفطرة والعقل في عالمية المنتج الشكسبيري

م.د.عبد المطلب السنيد
جامعة ذي قار / كلية الآداب/ قسم الإعلام
thiqaruni.org

المستخلص:

كثير من الباحثين ناقشوا في بحوثهم أهمية المنتج الشكسبيري على أساس عالميته من خلال الفكرة والشخصيات التي اعتبروها تلامس الحاضر ، ولكنهم لم يقفوا على حيثيات تلك العالمية التي يسميها الباحث هنا أممية أو إنسانية حيث ثبت الباحث هنا مشكلة تعنى بمبدأ الفطرة والعقل التي تناغمت وتناقضت في عقول ودوافع الشخصيات الشكسبيرية والتي قادت لصراع الأضداد في الجانب الدرامي والتراجيدي في منتج شكسبير. وقدم الباحث براهينته العلمية من خلال نماذج من مسرحيات شكسبير والأدوار التي قامت عليها الدوافع الخيرة والفطرية التي تمتعت بها على سبيل المثال : جوليت في مسرحية (روميو وجوليت) ، ودزديمونة في مسرحية (عطيل) ، إضافة إلى أوفيليا في مسرحية (هاملت) . بالمقابل كانت هناك دوافع غريزية تتعلق ببناء شخصيات أخرى اتجهت فطرتها نحو الشر حيث أثرت البيئة على تحقيق نوع من العقد النفسية والثأر والانتقام من الأعلى والأفضل ، وكان برهاننا على ذلك ما حصل في شيطانية ياغو في مسرحية (عطيل) ، والوصول إلى السلطة بمؤامرات ودماء كانت قد نفذت من قبل ماكبث في مسرحية (ماكبث) وزوجته التي دفعته في الإصرار على إستلام السلطة عن طريق الجريمة في نفس المسرحية . أما ما وجده الباحث في طريقة محاكات العقل الذي إنقسم إلى قسمين أو عقلين ، فكان العقل الأول هو عقل فعال يقود زمامه هاملت في مسرحية (هاملت) ليؤكد بحث العقل في الحكمة والتروي في اتخاذ القرار بينما جاء القسم الثاني أو العقل الثاني متمثلا بعقلية التقاليد التي أدت في عطيل لقتل زوجته البرينة وذلك تعلقا وتنفيذا للدعاية التي أخذت تأكل قلبه وعقله مما دعته إلى قتل زوجته وانتحاره على ما انتهت به التراجيدية . لقد توصل الباحث إلى نتائج مهمة تتعلق بتأكيد تلك الفرضية أو المشكلة المطروحة والتي تشير إلى أن الفطرة حينما تنشئ الفرد في محيط أو بيئة معقدة وغير شريفة تنتج فعلا معقدا وغير شريف وكذلك العقل والعكس صحيح. ومن هنا جاءت النتائج لتؤكد أن الإنسان بنانيا (غريزة أو فطرة وعقلا) هو نفسه في القرن السادس عشر عصر شكسبير والقرن الحادي والعشرين يتصرف في فطرته وعقله لاتخاذ المواقف وردود أفعاله ، لذا فإن إنسان شكسبير في الدوافع هو حاضر لحضور الإنسان المعاصر وبهذا جاءت أممي الدوافع واحدة في المنتج الشكسبيري وعلاقتها بمتابعة أعماله لما تحمله من عالمية

Instinct and reason in a global of Shakespeare drama

Presented by

Dr.Abedalmutaleb Alsenaid

Abstract

Scholars and researchers sought to reach the stage to prove the universality of Shakespeare in many elements of his tragic drama or comedy. Shakespeare was represented in the East and West and attracts viewers because the dramas that dealt with was exceeded the time and place where it is written. He was working to uncover the secrets of the people and their minds through the analysis of instinct and reason. The research draws on his research in place to analyze aspects inherent in the characters and the heroes who belong to different communities and traditions that brought them together, but it represented one human nature. The researcher cited examples and evidence confirms that an individual who grew up in a bad environment and has an inferiority complex vehicle stay with him/her throughout his/her life and the example of this is Macbeth, Lady Macbeth and Iago, who searched for power. The common good motives and Automatic-free was the psychological contracts were Juliet, Ophelia and Desdemona who used the instinct of their normal and natural life. While the heroes who have dealt with reason were more complicated in the lives of others at two levels: the first is a model that Hamlet thinker mind highly educated, he was contemplating not made his decision too fast to know the murderer of his father until the end of tragedy. The second is Othello who was narrow-minded in his decision to kill his wife through the mobilization his mind by the mind of the most evil and insidious, such as Iago.

Researcher concluded that Shakespeare not only the world through his ideas in his themes, but in his characters and heroes that mimic humanism. In addition, the motives that made the problem and that remain with us in the twenty one-century marginal. The bottom line is that Shakespeare is a man for all times and not related to time or place of Elizabethan Age. Shakespeare was truly a universal man

مقدمه :

شكسبير في رحلته الكتابية الإبداعية لم يكن مؤلفاً دراميا مميزا في العالم ، ولا فيلسوفا أو مفكرا لعصر معين أو زمن مختصر، بل هو الباحث والمهندس والمفكر والفيلسوف الذي كتب لعصره وعصور أخرى قادمة . وإذا كانت على سبيل المثال تراجيديا " هاملت" ، قد حاكت عقول جمهور القرن السادس عشر ، فهاهي اليوم تحاكي عقلية القرن الحادي والعشرين ، بل ولها من النكهة الأدبية والفكرية ما يجعلها - أي المسرحية - مطلوبة وحاضرة في الأمم الغربية والشرقية والأفريقية ، وبأية لغة تترجم تجد لها كثيرا من التواقين والحاضرين الذين ينتظرون دورهم في الدخول إلى المسرح لمشاهدة تلك المأساة الخالدة. إذن هنالك سر أو أسرار ..طلاسم أو تعويذات حفرت شيئا في ذاكرة الكون المؤنسن من رجل يفوق التصور ويعلو على العادي ويتجاوز المبدعين. فهو الذي رأى وأمعنت رؤيته عمقا ومعرفة أدق من علماء وباحثي علم النفس والاجتماع، بل وحتى مفكري السياسات أجمع . إذن ما الذي لا يعرفه شكسبير عن الإنسان، بل ما الذي تركه مجهولا في تحليله للنفس البشرية .. لا شيء إلا وكان شاخصا أمامنا، موجودا فينا، يعيش معنا. فهذا الرجل الذي يحمل مفاتيح أسرارنا لا بد وأن يكون هو "سوبرمان"يسبر أغوار الفطرة والعقل في التعبير عن شخوصه المتمثلين في مسرحياته والمنقسمين بين فطرية التفكير والدوافع التي قادتهم للعب أدوارهم في الحياة، وآخرين انحازوا لمنطق العقل الذي لم يسعفهم في تحديد نهاياتهم . وتلك هي مشكلة البحث الذي يحاول الباحث التصدي لها تحليلا يعتمد فيه على برهنتها من خلال النصوص المسرحية

١

التي أسقط فيها شكسبير موضوعة الفطرة والعقل والتي لم تناقش في أكثر البحوث والمقالات التي كتبت عنه. إن ما يهم الباحث هنا هو هل أن شكسبير تعمد على تقسيم دوافع الفطرة وسبر العقول في تعاملها مع الواقع التي تعيشه الشخصيات التي بنى قصصهم وطور صراعهم مع الآخرين؟ وهل كانت مفاتيح الفكرة التي افترضها الباحث قد حققت نتائج على مستوى التحليل العلمي والفني لبناء مسرحيات مؤثرة على صعيد الصنعة المسرحية نفسها ؟ إن مساحة الاشتغال على موضوعة البحث لا تتيح لنا أن نحصرها في مسرحية واحدة من الناحية الأدبية والفنية المسرحية ، وإنما البحث في منجزات شكسبير كمؤلف مسرحي ارتبطت مع مجموعة خصوصيات طرحها في مواضيع وقصص وأفكار وشخوص مختلفة ،لذا فأن من رصانة البحث أن يتناول الباحث أكثر من نص مسرحي وأكثر من شخصية تبعا لبناء وأهمية الشخصيات الفاعلة في منتجه الذي يشعره ويفكر فيه كل من قرأ وعمل ودرس وحلل منجزات شكسبير الدرامية والإنسانية التي ستكون نتائجها تشير إلى افتراضية عالميته التي حاكى بها الإنسان في كل زمان ومكان .

لقد أودع الله سبحانه أسرارا كثيرة للكون وتميز الإنسان عن سائر مخلوقاته بتركيبة يسمو بها في التصالح وكشف علاقته مع الخالق وبطرق تتمايز بين الفطرة والعقل، وكل عرف الله بالطريقة التي تحرك فيها ، فأما فطريا أو عقليا. ثم ارتقى الأنبياء في كشف سر العلاقة بينهم وبين الله، حيث انكشفت لنا ومن خلالهم بعضا من أسرار معرفة الخالق. وكتب الأدباء والشعراء والمفكرون والفلاسفة أسئلة باتت تؤرق الإنسان أكثر في البحث عن بقية الأسرار. وهنا ترك الباب مفتوحا بين عارف للإجابة وباحث عنها، ولم تستكن نفوس الباحثين عن الغور في سر فاض به العقل ولم تكتمل الإجابة عنه بعد.إنها منح الله في أن ينفذ الإنسان بسلطان لنيل المعرفة وفي جميع الأسرار، البسيطة منها والعميقة.. الفلسفية منها واليومية.كما

٢

أن هذا السلطان هو المحفز في حراك الفرد لكشف أسرار سير حياته وما يتركه من زاد معرفي لغيره من ثابت ومتحول القادمين ومن خلال فطرتهم أو عقلهم.

ففي العودة إلى صاحبنا شكسبير ، الذي كشف الله له بصيرة نافذة قادرة على بقاء تراكمية سلطانه العقلي غير المحدود في تحليل أسرار الناس ، وتشخيص حالاتهم ، وتحليل عقولهم وأفعالهم، وتسليط الضوء على طهارتهم ووساختهم، ونصاعة ضمائرهم وفسوقهم و خيانتهم .تلك هي العقلية التي جعلته يلامس عن قرب نفوس وأرواح البشر التي ما تزال تتعامل بالأدوات نفسها التي تنحدر من النفوس الحيوانية والنفوس الناطقة كما يسميها أرسطو وابن عربي وغيره من الفلاسفة إن الباحث يحاول أن ينبه القارئ إلى مبحثين نعتبرهما المفتاح الذهبي الذي دخل منه شكسبير إلى قلوبنا ، وكان سره الذي جعله رجلا لكل العصور وتلك هي المؤشرات التي ستدخلنا ببرهانيه البحث لتحقيق نتائجها في التحليل القادم الذي سيقود بوضوح

ومن خلال النتائج والاستنباط إلى نتائج وآراء بحثية تؤكد أهمية إختيار الباحث لجدة موضوعه الذي سيخدم المكتبة المعرفية لأهمية شكسبير وعمق مؤلفاته وأفكاره وشخوصه المسرحية .

الفطرة أو (الغريزة) مشكلة أم حل: لقد اشترك الكثير من علماء النفس والاجتماع في العالم على الرجوع في تحليلهم للفرد إلى البحث في مكنونات النفس البشرية ودوافعها التي تنحو نحو الخير والشر.ومازال الحراك يتصاعد في تقديم الدراسات والبحوث التي تتفرد بذات الإنسان منعزلا تارة ومنغمسا أخرى مع مجتمعه لتحقيق النتائج البحثية . وهاتان الطريقتان تعدان حجري الزاوية في بحوث ودراسات العلماء والباحثين الأكاديميين. ولكننا ومع جل احترامنا وتقديرنا للعلم والمعرفة المتواصلة من أجل مواكبة دوافع الفرد في جميع مراحله واختلاف عصور تطوره، نجد أن ما جاء في حديث الرسول محمد(ص)، قاسما

٣

مشتركا يحل معضلة هذا الكائن الآدمي. لقد أخرج البخاري ومسلم في الصحيح المسند والمتفق عليه قول رسول الله (ص) :" كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"١

وعلاقتنا مع الفطرة هي علاقة حميمة لا ينفصل جذرها عن المحيطات والدوافع وما تمليه أو تسجله طبيعة المحيط الذي يترعرع فيه ذلك المولود. والفطرة هي أيضا الوعاء الذي تكمن فيه الغرائز البشرية. وفي وعاء الفطرة هذا تكمن غرائز فسيولوجية يحتاجها الجسم البشري وهي على سبيل المثال : العطش والنوم والجوع والخوف وحتى الأمومة.وأما الغرائز التي تحاكي المحيط والتي تنطلق من فكرة الرسول محمد (ص) ، فهي التي تعمل خارج الاحتياجات الفسيولوجية ، وتكون عاملة نافعة مستجيبة لدوافعها و محيطها الذي تغترف منه نموها ، ومثالها: غريزة المعرفة وغريزة التغلب والسيطرة، والتملك، الهدم والدمار و الشجاعة والحب والجنس والسيادة وغيرها من الغرائز البشرية والتي تكمن في فطرة الإنسان التي فطره الله سبحانه عليها. ترى من يحرك الفطرة بغرائزها تلك؟ ، إنها الدوافع التي يكون قاسمها المشترك هو الفعل. والفعل هنا يعني العمل الذي يعتبر المنفذ الرئيس للغريزة ، وهنا بيت القصيد ، حيث أن شكسبير يربط ويبلور ويحلل الغريزة عند شخصياته ويقودها حسب فطرتها التي فطرها عليها المحيط بدافع الفعل المحرك للقيام بالعمل فعليا أي عمليا متحركا. وهذا هو جوهر العمل الدرامي حسب ما جاء به أرسطو، وما أصل الدراما إلا القيام بفعل ما يقود إلى أفعال تطور الحدث وبدوافع ومحركات ومدركات تخلق صراعا بين الأفعال الدرامية نفسها وتترك نتائجه على الشخصية الدرامية نفسها وهكذا فكل دراما لابد لها من محاكاة الفعل بالفعل . لقد كتب عالم النفس كارل يونغ في كتابه (البنية النفسية عند الإنسان)إشارة تعزز الفعل والغريزة على أن " الغرائز أنماط

٤

من الفعل، وحيثما وجدنا أنماطا موحدة من الفعل ورد الفعل، تتكرر بانتظام، مع الغريزة بصرف النظر عما إذا كانت مصحوبة بدافع واع أم لا"(٢). لذا فإن أي شيء يحرك الغريزة له دوافع ، والدوافع البشرية متعددة في عالمنا و تكاد تكون نفسها في المجتمع الشكسبيري ، و التي لا تنفصل عن حياتنا اليومية ، وهكذا تكون الدوافع مرتبطة مع الفطرة التي تنمو وتنشئ ذلك الفرد المولود في بيئة ما لتحفزه في أن يكون دافعه شريرا أو خيرا، و حيث يتحرك الفعل المدفوع نحوه محيطيا في تطور فطرته التي يتبنى صاحبها اشتغال الفعل الضار أو النافع على العموم.

لقد اجتهد فرويد في استخدام اللاشعور وقوانين ألهو والأنا والأنا العليا ، وربط حالة الحلم واللاوعي في تحليله النفسي للافراد ، مما جعله أول المستفيدين من الأدب والفن وكذلك من شخصيات كتاب المسرح ، حيث يعرف الجميع تحليله النفسي ل" عقدة أوديب" التي أخذها من " سوفوكليس"، على أساس الدافع الجنسي،ثم تناول هاملت شكسبير، بالتحليل النفسي محاولا تطبيق نظريته على الفن والشخوص المسرحية التي تناولها شكسبير العارف بخفايا النفس البشرية .

يرى الباحث في كتاب(المختاري) وصفا جميلا عن فرويد في نظرية التحليل النفسي وعلاقتها بالفن علامات واضحة في الاستفادة واستخدام الفن والأدب والشعر، على أنها أعلى النماذج التي منحت فرويد طريقا معبدا في البحث النفسي التحليلي، حيث يذكر المختاري في كتابه"المدخل إلى نظرية النقد النفسي" :- "" ومن هنا أشار "فرويد" في أكثر من مناسبة إلى أن الأدباء والفنانين والشعراء، هم وحدهم أدرى بأسرار النفس الإنسانية وإليهم يرجع الفضل في اكتشاف اللاوعي. وعلم علماء النفس والطب النفسي الإفادة من مكنونات الأعمال الأدبية والفنية"٣ .

إن ما نحاول عرضه الآن هو طرح مشكلة الفطرة وما تفعله الغرائز بمحفزات الدافع، ثم نضع فرضيات للدراسة والتحليل والنقاش، والتي تقوم

على أن ما حصل في مسرحية " عطيل" على سبيل المثال كان حركتين تتجاذب إحداهما الأخرى وتصارع أحداهما الأخرى
٥

بين الغريزة وبين الفعل في تنفيذ تلك الغريزة التي كان أحد قطبيها الغيرة وحب السيطرة التي تقود إلى تدمير الآخر، وتصعيد جانب الجريمة أمام غريزة الحب التي تحاول أن تصعد وعلى السلم نفسه بغريزة سوية خيرة. إنه صراع إنساني حياتي يومي، صراع النفوس العالمي في صراع المتحركين وكذا الحال بين الغرائز ومواقفها متمثلا بشخوص تتساقط ولم تصل الدرجة الأخيرة من السلم إلا وتكون قد قررت نهايتها، ثم تبدأ مرحلة أخرى ومن مكان آخر وزمان آخر بدلالات سيمولوجية مرئية ومسموعة المعنى، حيث تعود الكرة لتفكيك ثوابت الفطرة أو الغريزة وفي محاولة جديدة لتسلق ذلك السلم الرهيب الذي نصبه شكسبير، وما زال قائما شاخصا حيا بيننا نحن أبناء القرن الحادي والعشرين. وعلى عتبات سيميائية المعنى يصمم شكسبير فاضحا ومعلنا ومشيرا إلى نفوس شخوصه بترامیز.. وبقوة وصراحة ما فعلته النتائج التي آلت إليها نهاياتهم حين نفذوا غرائزهم التي لم تكتمل. إن الغريزة عنده تفعل أكثر الأحيان فعل الطبيب الذي يعطي وصفته في دواء ما لمريضه وينصحه ألا يسرف في تناولها إلا عند الحاجة لها، وحين يتجاوز المريض إرشادات طبيبه تكون النتائج معكوسة. نلاحظ أن هناك غريزتين في واحدة أسمها الحب: حب الأمومة، حب الحبيبة والزوجة، حب الغدر، وحب المال، وحب الشهرة وحب المنصب. وجميعها تندرج تحت إسم الحب. وهذه خاصية يتفرد بها شكسبير، فالحب غريزة بشرية متفق عليها وفطرة الله سبحانه ، منذ أن خلق آدم وحواء، والذي يثير فينا خوفا واستفزازا ثم تطهيرا، أن جميع هذه الغرائز الثابت منها والمتحرك تتآمر على غريزة الحب الصادقة لتوأدها وتبقى غرائز الحب الأخرى تعيش معنى حين تجدها حية بيننا،وهذا هو الذي يشعرنا بخيبة الأمل والذي حدث بالذات ل(أوفيليا-[1] هاملت) و (جوليت – روميو) و (ديزدمونة- عطيل).وتلك هي شواهد وبراهين فنية وواقعية تتجلى في نصوص وشخوص شكسبير المذكورة أعلاه.

في العودة إلى فرويد الإنسان والذي ينطق طبعاً عن الهوى في تحليلاته ، حيث أن بعض نظرياته في التحليل النفسي قد دحضت ولم تعد تحتل ما احتلته سابقا من تفسير لمجمل السلوك البشري ينطلق من الدافع الجنسي ولعدم إشباعه يشكل نوعا من العقد النفسية للإنسان ولكن بحثا جديد يحمل جدلا أكاديميا حول مسألة الحلم واللاوعي وتحقيق اللذة الجنسية وصولا إلى الأنا العليا الذي يسيطر غريزيا ويحقق نكوصا في عدم تحقيقه، حتى جاء نيتشه الذي أعلن رياديته في التحليل النفسي واعتبر المحرك أو الدافع الأخلاقي قاسما مشتركا أعظم لقيام الأفعال، وشدد على أن الحقد فعل سلبي وحالة مرضية ليست سوية وهو ما جعله ينطبق على " كلوديوس" عم هاملت في استلابه لسلطة أخيه الملك بعد قتله. وكذا الحال ينطبق على كل من (ماكبث وياجو)،اللذين جاءت محفزاتهم من خارج احتياجات الجسم. فهما ليسا جائعين إلى الطعام وما يريده الجسم من طاقة وفيتامينات، بل جاءت من غرائزهم المريضة ومعالجاتهم السلبية لجوع الجاه.وهذا ما ثبته صراع الدلالة في الحس والصورة عند تطابق المعنى الذي جاء في المشهد الثالث من الفصل الأول ليعلن " ياجو" كرهه لعطيل والعمل على تدميره في حوار دار بينه وبين رودريغو:

ياجو : .. إنني أكره المغربي، قضيتي عميقة في قلبي
وقضيتك لها أسباب لاتقل عمقا ، فلنتآزر معا في انتقامنا ٤

إن الحديث عن فعل الغريزة يفتح الباب لنا عريضا في معرفة مدركات ومحفزات النفس البشرية التي خاض في دواخلها شكسبير ومن خلال شخوصه عمقا ومعرفة ،و هي واحدة من الموضوعات التي جعلته حاضرا معنا حتى الساعة.ولكن الباحث وجد أن حجر المسبحة لم تكتمل بعد في هذا الموضوع ، حتى وجدت أن العالم النفسي " أدلر"، استطاع أن يلقي ضوءا ساطعا في أنه تعامل مع الظاهرة النفسية من باب الغريزة من خلال ربطها تماما مع المجتمع أو المحيط الذي تعيش فيه الشخصية.لقد اشتغل هذا المفكر على الجوانب الاجتماعية في تغيير

وتطوير أو نكوص غريزة الفرد.وهنا نعود إلى حديث الرسول الكريم محمد (ص)، والذي حلل فيه حديثه ما يتركه المجتمع والمحيط الذي يعيشه المولود عليه أي الفرد. كما أن دوافع ومحفزات الفطرة لا تكون فقط من ذات المولود نفسه، بقدر ما هي تحاكي المحيط الاجتماعي الذي ينمو ويترعرع فيه. وتلك هي النتيجة التي يخوض في بحثها ويحقق نتائجها" أدلر" في بحوثه النفسية والتي خاض فيها عقل شكسبير في رسمه لماكبث

٦

وعطيل كنموذجين للبحث. ولعل دالة المحيط الاجتماعي الثابت عند " جوليت"، هو الذي جعلها بين ناريين، نار الحب لأبن عشيرة تكن لها عشيرتها العداء والحقد المتحول، وهذه مشكلة معقدة أبتدعها شكسبير وجعلها حقيقة صراع . وفي نفس السياق وأعني سياق غريزة الحب ، نرى شكسبير من جهة أخرى يتفنن وبذكاء حاد في أن يفرض على الحبيبة " أوفيليا"، ذات الفطرة البريئة التي جعلها تعيش في محيط فاسد فاسق وقذر وهي الفاضلة والنبيلة المخلصة، ولكن ما أحيط بها جعل هاملت"، يقارع قلبه الذي ملكته أوفيليا ويطلب منها أن تذهب إلى دير لتتطهر من رجس المحيط ، لأن الفضيلة غادرتها وهي تعيش في بيت موبوء ومشبع بالرذيلة حيث اعتقدت أوفيليا أن حبيبها جن جنونه ولم يعد سويا في دوافعه ، مما دعي الباحث لتسجيله كحقيقة يقصد بها هاملت أن الفطرة الحسنة قد تزول في البيت السيئ. فنلاحظ في المشهد الأول من الفصل الثالث أن هاملت يزيد من تقريع أوفيليا بينما أوفيليا ومن هول الصدمة التي تعرضت لها من هاملت جعلتها في إعتقادها أن هاملت قد أصيب بالجنون :

أوفيليا: لهفي على عقل رفيع قد هوى!
من النبلاء لسانهم، ومن الجند سيفهم، ومن العلماء عينهم، ٥

يقودنا الذي تقدم مع الأمثلة التي أوردها الباحث من خلال شخصيات شكسبير المسرحية ، والتي تعاملت مع موضوعة الفطرة الإنسانية والتي جاءت متطابقة مع موضوعة المحاكاة التي ربطها أرسطو في كتابه " فن الشعر" إلى أن : ".. المحاكاة أمر فطري موجود للناس منذ الصغر، والإنسان يفترق عن سائر الأحياء بأنه أكثرها محاكاة، وأنه يتعلم أول ما يتعلم بطريقة المحاكاة "٦. علما أن كشف مستور الدال في المحاكاة يعني تفكيك ترامزه من خلال المدلول المتحرك وهو الفعل الطارد للثابت والمستقبل للمتحول في المحاكاة التي تكشف إحاطتها عن معنيين في صراع الأحياء. وهكذا يرى الباحث إن موضوع الفطرة والغرائز التي أشتغل عليها شكسبير والذي هو موضوع مهم كما ولابد من التنبيه بأن مفردة الغريزة جرى عليها تحديثا عند أكثر علماء النفس ، وتحولت إلى كلمة " دافع".

٨

وسينتقل الباحث إلى موضوع آخر مع ضرورة التمهيد له بهذا المدخل ليكون عند القارئ تصور واضح حين نتعمق في بحثنا في الحديث عن افتراضية علاقة الفطرة والعقل بعالمية عقل شكسبير و منتجه الإبداعي. لابد أن نشير هنا بما كتبه(هوايتنج) في كتابه " المدخل إلى الفنون المسرحية"، والذي يؤكد فيه على عالمية عقلية شكسبير الذي نصبو إلى تأييده حيث يقول: "إن طلبة المدارس الثانوية في أمريكا ما زالوا يصفقون ويضحكون من ترويض النمرة، وحلم منتصف ليلة صيف، وجعجعة بلا طحن، كما لم يضحكوا ويصفقوا لأي مسرحية أخرى مما أخرجها المسرح حتى الآن. ولم أر أنا الجمهور الحديث منفعلا بمسرحية كما رأيته وهو ينفعل في عرض لمسرحية الملك لير. بل وصل شكسبير حتى إلى جمهور السينما، بالرغم من أن الكثيرين من العاملين فيها انصرفوا عن إخراج أعماله ظنا منهم أن جمهورها لن يكون إلا فئة قليلة من أصحاب الثقافة.ولكن لورنس أوليفيه سجل بأفلامه عن هاملت وهنري الخامس رقما قياسيا في أرباح الشباك ." ٧. وتلك تؤكد للباحث أن الفطرة والتي سميت بالدافع كانت مشكلة وحل في نفس الوقت لبناء الفعل الدرامي الذي مازال مقبولا في عصرنا تبعا لإنسانية الحدث وعالمية أداءه.

مخرجات العقول في العقل الواحد

العقل: يذهب العديد من علماء النفس والاجتماع إلى تعريفات متنوعة وكثيرة للعقل كما بحثت الفلسفة الكلاسيكية عن تعريفات ترتبط وتنفصل مابين النفس والروح والعقل، ثم تبعهم في ذلك فلاسفة الإسلام وأهل العرفان في منهجية بحثهم وتفسيرهم للنفس والروح والقلب والعقل من خلال المصدر الأول وهو القرآن الكريم. أما المصدر الثاني والمهم هو تعريف أرسطو للعقل في كتابه " دعوة للفلسفة":

إن آخر ما ينشأ من (ملكات) النفس هو ملكة العقل، إذا سلمنا بهذا يتبين أن ملكة العقل بحسب طبيعتها هي هدفنا كبشر وأن استخدامها هو الغاية الأخيرة التي من أجلها نشأنا، وإذا صح القول بأننا قد وجدنا وفقا للطبيعة فقد اتضح أننا نعيش أيضا لكي نفكر في شيء ولكي نتعلم " .(٨) ولقد تفحص الباحث بالقراءة والبحث عن تعريفات في القواميس الأوروبية لمعنى العقل، فوجد أن هناك أكثر من خمسين تعريفا للعقل. اغلب المعاني تتقاطع مع بعضها في تعريف العقل، لذلك قرر أن يختار تعريفين ، الأول من القاموس الإنكليزي المتداول عند الأغلبية Encarta & World ، والذي ينص ، على أن العقل هو: قاعدة الفكر والذاكرة:وهو مركز الوعي الذي يولد الأفكار ، والمشاعر، والخطط ، والمدركات، وخازن للمعرفة والذكريات .كما يطابق تعريفا من قاموس الكلية

الأمريكية والذي ورد عند الدكتور(حيدر غيبة) في كتابه " هكذا تكلم العقل" ، بأن العقل "..هو أداة التفكير والشعور والإدارة وممارسة الإدراك والحكم والتأمل ...الخ في الإنسان أو الموجودات الأخرى المدركة-الواعية"٧، وتتبعنا معجم كامبردج ب تعريفا آخر، ينص على أن المفردة عقل وفتح أمامها قوسان لمعنى مفردة عقل وتعني :" تفكير". وبعدها ذهبنا إلى "لسان العرب" (لابن منظور) الذي أكد على أن كلمة عقل لغويا تعني :" الحجر والنهى ضد الحمق" ٩ . وعليه يرى الباحث بالمنطق الموضوعي أن الذي يحكم على فعل العقل نفسه هي المعايير القيمية المجتمعية التي تعلق أعرافها على ماهو عقلاني يصدره باب العقل، وماهو غير عقلاني يذهب لباب الحمق. ولذلك فالنتيجة التي نطلع بها أن العقل هو النظام الذي يسمح للنور أن يعمل بيسر ويكبح العسير وغير المستساغ في السلوك العام المؤدي للحمق. وننصح أيضا بالعودة إلى المعجم الفلسفي للدكتور(جميل صليبا) والأهم هو أرسطو في كتاب " النفس" و كتاب " نظرية المعرفة عند أرسطو" للدكتور مصطفى النشار". كذلك جاء أيضا في المعجم المدرسي أن العقل:" غريزة يتهيأ بها الإنسان لفهم الخطاب٩"

إن بعض العلماء والفلاسفة المسلمين أيضا يؤكدون أن ليس هناك مادة فسيولوجية يطلق عليها العقل في صندوق الدماغ والمخ. ولو رجعنا إلى تقسيمات ووظائف الدماغ لنتذكر ما تعلمناه في المدارس. حيث أن الدماغ ينقسم إلى أربعة أقسام: ففي منطقة الجبهة وتدار عمليات التفكير والتخيل والحركة والكتابة والكلام. أما في وسط الدماغ وهو التقسيم الثاني: فهناك مناطق السمع والإحساسات وتفسير معانيها . ثم المنطقة الثالثة وهي المنطقة الخلفية التي يتموضع فيها الجهاز البصري والذي ينقل ويزود ويفسر الإحساسات البصرية. وصولا إلى المنطقة الرابعة والتي تتمركز في الخلف وفوق الرقبة ويكمن فيها المخ والمخيخ والبصلة السيسائية حيث تقوم تلك المنطقة بوظائف متعددة أيضا كالحفاظ على توازن الجسم وضربات القلب وعمليات التنفس والهضم والدورة الدموية.(١٠) . لذا يعجز المرء ويندهش من هذا التشكيل الإلهي العظيم ، ويقف جامدا صامتا على هذه الصيرورة والإبداع الرباني الذي لا يجاريه إبداع البتة، فسبحانك ربي على جمال وقدرة ما خلقت.وهنا يشاكس الباحث شعور يعود الى رسائل الفارابي في العقل وتقسيماته التي وردت في تحليله عن مراتب العقل التي قسمها إلى أربع مراتب تتمركز في : العقل بالقوة و العقل بالفعل و العقل المستفاد ثم العقل الفعال. ، وهي نفسها عند المعلم الأول أرسطو.

لذا فإن جميع مجريات الحدث الدرامي عند شكسبير كانت تعود إلى العقل الفعال للقيام بتأسيس مدينة فاضلة لكنها وبعقل فعال آخر تنهار فيه قيم ومبادئ وكما قلنا قبل الوصول إلى نهاية السلم الرهيب الذي يتجلى بعقيدة التراجيديا وليس بالسعادة التي بحث فيها الفيلسوف الإسلامي أبو نصر الفارابي الذي ولد في مدينة فاراب التركية (في ٢٥٧ هجرية وتوفي في ٣٣٩ هجرية). ولو أمعنا النظر جليا في تأسيس المدن الفاضلة والمدن الجاهلة والفاسدة، لنجد وعند جميع الفلاسفة أن فيض العقل الذي جاء عند الفارابي هو الذي يفصل بين الفضائل والرذائل في النفس البشرية التي تريد الوصول إلى السعادة العليا، ولكن الاختلاف في منهج الوصول عند الفلاسفة مختلف لتلك السعادة. ويبدو للباحث أن هناك مبدأ فلسفيا عاما وأخلاقيا يخص النفس، الروح ، العقل ، والكل يبحث عن فضائل النفس ومساوئها: فتجد لأرسطو منهجا للنفس الناطقة (وتعني العقل) والنفس الحيوانية ، وكذلك الحال عند الغزالي والفارابي وابن عربي والكندي وابن رشد، وحتى عند الحداثويين مفاده أن التراكم المعرفي في الوعي وإدراك الأشياء يتمحور في قاسم مشترك أعظم ، ألا وهو كيفية استخدام العقل لتحقيق نظام ما .

يقودنا البحث لمعرفة أن عقل شكسبير كان يفعل عقول أبطاله ولكن بدرجة محددة بفعل حركتها مع الحدث الذي سينقلب على البطل نفسه من خارج عقله المفعّل. ففي تلكم اللحظات التي سبقت حتى التفكير للوصول إلى بديل عقلاني آخر يحاول أن يتجنب فيه البطل نهايته المحتومة . وشكسبير هنا يدمج بين القلب والعقل في نظام فيه مغامرة تقود أبطاله في النهاية إلى أن تكبو عقولهم الميسرة لتبدأ عقول فعالة أخرى مسيرة تتحرك بسلبية وفجور لتحدد نهاية موت البطل التراجيدي:<u>هاملت</u> مثلا بسيف مسموم من قبل عم هاملت الذي استولى على السلطة في قتل أخيه، حتى أفصح ليرتس عن المؤامرة التي قادها الملك حين وضع سما على نصول السيوف وفي كأس زوجته والدة هاملت التي تزوجها واصبح الموت الجماعي الذي تحقق من قبل الملك الجديد بدافع مخطط له عقليا حتى فضحه ليرتس وقبل أن يموت مسموما قبل موت هاملت في المشهد الثاني من الفصل الخامس:

هاملت : للنذالة ! آ! أوصدوا الباب! غدر ، غدر! ابحثوا عنه!

ليرتس: انه هنا يا هاملت.في قبضة المنية أنت، ولن يسعفك في الدنيا دواء.لم يبق فيك نصف ساعة من الحياة . وسلاح الغدر في قبضتك أنت ، مسموم غير مفلول. علي دارت الخديعة النكراء. انظر، ههنا رقدت، ولن أقوم ثانية ، وأمك سمت. لا استطيع أكثر...الملك...الملك هو الملوم،١١

. أو انتحار عطيل حبا ووفاءا لقلبه وعقله حيث تطابقت فطرته وعقله في إخلاصه لزوجته مما دفعه لصراع نفسي أجهز عليه انتحارا ، لأنه أمام برهان زائف من ياجو ، وهو العرف أن زوجته ديزدمونة شريفة وظنونه التي بثها ياجو من كونها غير شريفة ، كل هذه العواطف التي أخرت حظور العقل انتهت بقتل زوجته والتي لحقها كمدا وحزنا وثأرا على نفسه ونفسها من نفسه بفعل الغيرة التي تقول عنها اميليا زوجة ياجو التي جبلت على فطرة سوية وهي تقول: " .. والغيرة وحش يناسل نفسه، يلد نفسه " ١٢، وحين حان وقت تنفيذ حكمه على نفسه وقف أمام جثمان زوجته في المشهد الثاني من الفصل الخامس والأخير وقد طعن نفسه أمام الملأ وقال :

عطيل: (لجثمان دزديمونة) قبل أن أقتلك ، قبلتك . وما من سبيل آخر.. قتلت نفسي، لأموت على قبلتك.١٣.

العقل تعطل كي يصل النهاية المحتومة .كذلك الحال عند الليدي ماكبث التي تحركت فيها رؤى فعالة لتحويل السعادة إلى شقاء ، وحين يلوح لماكبث خنجرا في الظلام. إذن الجميع هنا يشتغل بالعقل الفعال لتحقيق مدينة(وأعني نظام) يعتقد أنها فاضلة في رأيهم حيث تتزاحم فيها قيم تربطهم بالنظام الأخلاقي تارة وتبعدهم عن النظام القيمي تارة أخرى وهذا يريك عظمة الصراع الإنساني بعقول مفعلة نحو الخير وكذا هو الشر . وهذا ما رأيناه في الفصل الخامس والمشهد الثالث حيث يعترف مكبث بتطرف عقله الإجرامي الذي أغرق نفسه وزوجته ببحر الدم ، فهو يطلب من طبيبه ويطالبه بأن يشفي زوجته من هلوسات العقل التي غابت حكمته من أجل كرسي السلطة ، فالزوجة والزوج مرضى ولا يستطيع طبيبهم أن يفعل شيئا :

مكبث: .. أما بوسعك أن تداوي ذهنا عليلا، أن تقلع من الذاكرة حزنا مجذرا ، أن تمحو الهموم المدونة في الدماغ ، وبترياق نسياني عذب تنظف الصدر المكتظ من ذلك الحشو الخطر الذي ينوء بوقره القلب ؟١٤.

من خلال ما تقدم وجد الباحث أن البحث عن مدينة فاضلة في منهج شكسبير الدرامي هو محض خيال عنده وعند شخوصه بشكل عام . والسبب في ذلك هو أنه يحاكي ما تحمله النفوس البشرية من أفعال، وتلك الأفعال هي ليست أفعال الفلاسفة والحكماء، وتقودهم تلك الأفعال إلى محيط مهلك وفاسد يحاول قتل العقل الراجح والإدراك المعرفي العالي والخيال

المتميز وسلامة القلب، وعلى مستويات ودرجات مختلفة. فهذا هاملت الذي يعد أكثر عقلانية من عطيل لأن عقله ينتمي إلى العقل بالفعل ، بينما عند عطيل كان العقل عنده مكتسب من التعليم والتلقين التقاليدي ويقينية موروثاته ،لذا كان لهما أن يبنيا مدينة فاضلة بفضائل أخلاقهما، من فطرة صادقة وعقل يبحث عن يقين، ولكنهما لم يفعلا . إنه ليس قصورا منهما ، لأن شكسبير أودع فيهما عناصر إيجابية لا يقبلها المحيط الذي يعيشان فيه، لذلك كان العقل مذبوحا قبل الصعود للنهايات المحكمة المصير. إن شكسبير في شغله مع العقل ، كان يسير على مبدأ الشك الفلسفي الذي جاء به الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت، وإن جملة سقراط الشهيرة، " اعرف نفسك"، وشك الغزالي، يقتربا من منهج الشك الجديد الذي تبناه ديكارت في مراجعته لرحلة عمره وسيرة حياته وذلك عن طريق اختبارات القيم العقيلة والمعرفية، والبدء في فرض قانون الشك المنهجي والعلمي وميزته التي لا تبدو يقينا طالما أنه يعتبر الفطرة والعقل يكمنان في الإنسان. لذلك يبقى التراكم المعرفي هو الموصل إلى يقين ثم ينسخه بقين آخر. فالتجارب المعرفية تبقى تجريبية و لا أدري كم من الترابط كان يسود بين ديكارت وشكسبير ، حيث أنهما نتاج القرن السادس عشر ، ولو نظرنا إلى فترة حياة ديكارت وهي (١٥٩٦-١٦٥٠)، أما رحلة شكسبير الحياتية فكانت تمتد مابين(١٥٦٤-١٦١٦).لنجد أن هناك تقارب في رحلتهما العمرية ، ولأن الشك هو الطريق نحو اليقين، رأينا أن شكسبير يستخدم منهجا ديكارتيا في الوصول بالشك حتى اليقين عند هاملت، حيث إن قاتل أبيه هو عمه الذي صار حقيقة باليقين التجريبي.لقد كتب ديكارت في مبدأ شكه قائلا: " الشك خطوة ضرورية لابد من اتخاذها ، فخبرتي بالخطأ وتعرضي له منذ عهد بعيد واحتمال تجدده بفعل تلك الأحكام التي خضعت لها ولم أتبين صحتها ، سواء كانت أحكاما فرضها الغد ، من معلمين أو خيال –وتعرضها للخطأ المعروف- إن هذا يدعوني إلى الشك . "١٥

لذلك يرى الباحث أن شكسبير كان قريبا من شكوك ديكارت، وأنا افترض أن عمق النظرة الفلسفية الجديدة والحداثوية التي عمت القرن السادس عشر يكون قد استلهم شفراتها شكسبير ،

وهو الذي يبحث من خلال شخوصه المسرحية في طاقة العقل وطاقة الغريزة ، الفطرة أو الدافع، فإن وجد أحدهما تنحاز إلى الغريزة تراه يمعن في تطويرها نحو الشر ، وإن وجدها تنحاز إلى طاقة العقل، أمعن في تطويرها وأضفى عليها علامات العلو للصعود إلى الهاوية في سلمه الرهيب: ومثالنا على هاتين الحالتين هما عطيل" ، و" هاملت " . فالشك حركة تأملية كان يوظفها هاملت عقليا للوصول إلى مرحلة اليقين، وإن جملة ديكارت المشهورة . " أنا أفكر فأنا موجود" ، تنطبق على شك هاملت في جملته : أكون أو لا أكون " ، ثم استخدمها عطيل، ولكن اشتغال عطيل كان مختلفا هنا، إذ أن عطيل وغريزته كانت أقوى من اختبارات عقله وذلك نتيجة ما يحيطه .لذا فإن شكوك ديكارت المؤقتة كانت هي شكوك هاملت للوصول إلى مرحلة اليقين والتيقن في معرفة عقلية تجريبية أكثر منها شعورية أو عاطفية، تلك التي دفعت عطيل دفعا سريعا لإقصاء حياة حبيبته وحياته بتلك السرعة ، حتى أن المسرحية في رأي النقاد تعتبر ياقوتة ذات زمن قصير قياسا إلى بقية أعمال وتراجيديات شكسبير. لذا نقول أن طريق اليقين في عطيل كان طريقا سريعا، بينما يقين هاملت فهو طريق علمي وعقلي ، ويكاد يرتقي أنتوني في " يوليوس قيصر" ، إلى هذه الدرجة العقلية التجريبية.

إن قياسات منهج العقل التجريبي الديكارتي ، وإشغالات مدرسة أدلر النفسية على الفرد لها تواصل قوي مع انعكاسات المجتمع على الفرد، حيث يكون المجتمع والفرد فيصلا واحدا في التأثير والتأثر ، إضافة إلى حديث الرسول محمد (ص)، كل مولود يولد على الفطرة. وهنا نرى أن بابا يفتح على علم الاجتماع، حيث جاء عند الدكتور علي الوردي قوله: " ومن الجدير بالذكر أن للإنسان عقلين: ظاهر وباطن، وإننا حين نعظ الإنسان في هذه الحالة،

لا نؤثر إلا في عقله الظاهر فقط. أما عقله الباطن فهو لا يفهم من مواعظنا ونصائحنا شيئا إذ هو مشغول بما يوحي إليه العرف الاجتماعي من قيم واعتبارات".١٦

وتلك هي اعتبارات " ياجو "، بالرغم من النصائح الرمزية التي كانت تقدمها له زوجته التي لا يحترمها ويوظفها لمآربه الاجتماعية وبعقلية فعالة ثاقبة ، فهو يحمل في نفسه عرفا وطموحا اجتماعيا يروم الوصول إليه في تسقيط " عطيل" الذي في قاموسه أي ياجو الاجتماعي أنه لا يحق لهذا الأسود أن يتزوج امرأة بيضاء و ذكية ، ويتسيد عليه في الرتبة العسكرية والمنصب العالي. لقد سلك شكسبير منحيين إنسانيين وكانا طريقاً سالكاً في توظيفه الذكي للفطرة أو الغريزة أو الدافع، مع العقل الذي وزعه بترتيب بارع على شخوصه حيث كان عميقا في تشكيل أبطاله الذين هم من بني البشر في عرض واقع الفعل الدرامي الذي ينتمي إلى واقع تجريبي.

ولكننا نجد الحكمة والتفكير العقلي السليم يأتي دائما من شخصيات شكسبير الثانوية أكثر من الرئيسية أو الثانية ، وهذا مؤشر في استخدام العقل الثاني المرافق إلى البطل والذي يعترض على حراك عقل البطل ، فهم عند شكسبير يأتون بالحكمة العقلية أما من الخدم أو الفقراء أو البهاليل والذين يحبون ويخلصون للبطل ، وهي في رأي الباحث محاولة تكنيكية عالية الصنع، وتحمل في ثناياها حكمة عقلية ورمزية مفادها أن الطبقات الدنيا أكثر حكمة وعقلانية من أسيادهم ، لأنهم لا يخافون على شيئ يملكونه، حيث يرون ما لا يراه البطل أو الحاكم أو القائد أو السلطان أو ما لا يعيره انتباها وذلك لأنهم يعيشون حقيقة التراكم المعرفي بتجربتهم العملية الحياتية اليومية وذلك كونهم قريبين من هوية المجتمع الثقافية والفولكلورية ومن خلال منظومة القيم الاجتماعية التي تجاهلها البطل الذي يسير قاصدا الطريق إلى هاوية الدرجة الأخيرة من السلم الرهيب ليلقي مصرعه أو ماكتبه وقدره المرسوم تراجيديا ، وتلك هي

١٥

فطنة العقل الشكسبيري الذي يجب أن نستفيد منها في صنعة التأليف الدرامي عند المؤلف العربي.فشكسبير إستفاد من مخرجات ونهايات أبطاله التي رسمها عقله ووزعها على عقولهم حتى اكتسبت تلك العقول شرعية وواقعية إستطاع الباحث أن يحلل رموزها من خلال أبطال شكسبير ومن مختلف المسرحيات الدرامية التي كتبها.

الأبطال الرئيسيون والأبطال من الدرجة الثانية في التأثير الدرامي لهم نفس الأهمية في استخدام العقل ولكن كل على طريقة فعله وما يمليه عليه نظامه العقلي الذي يدخل فيه القلب ، وهذا يقودنا إلى نتيجة الوجود وعدم الوجود لوصفات نفسية أو عقلية جاهزة في تجارب النفس البطلة رئيسة كانت أو ثانية، إنها تجارب مجتمع ومحيط ما ،حيث يكون الفعل العملي العقلي فيه دليل على مصداقية وأفكار الشخصية نفسها. وهذا فعل براجماتي .(والبرجماتية)هي حركة مهمة ومميزة في الفلسفة الأمريكية التي بدأت عام ١٨٧٠ و كان لها تأثير

في السياسة والقانون والتعليم والدين والسلوك الأكاديمي. ويعتبر العالم الأمريكي وليام جيمس ، رائدا جديدا لها في علم النفس البنائي ومدرسته الوظيفية التي تعتمد على ثلاث وظائف للدماغ هي : التفكير، والإحساس،و الانفعالات. ولقد جاءت مدرسته البرجماتية التي تؤكد بالتجربة عن عدم وجود موقع محدد للعقل في الدماغ!!.(١٧). لقد عزف شكسبير لحنا جميلا على هذين البحثين اللذين تحدثنا عنهما بشكل مختصر في هذا المدخل ، وذلك ليكون القارئ صورة أولية حين الدخول إلى تلك الدراسة. ولنعرف تماما أن ما سنجده يعود إلى تلاقي القلب والعقل، إنما هو حقيقة الكون الآدمي كله وليس نتاجا خص به شكسبير القرن السادس عشر وهو قرن النهضة والإبداع والحيوية والعدل والفجور، وإنما وزعه على العالم كله.

كما انطلقت الأحلام والطلاسم والشعوذة لتستخدم أيضا على المسرح، إضافة إلى المؤامرات والذبح وسفك الدماء من أجل السلطة والمال والمنصب ، حيث تصاعدت الروح العشائرية إلى أبعد مستوياتها، وظلت قلوب الأسوياء وعقولهم عرضة للاستباحة، وانتهكت تقريعا وتهشيما أعراض الشرفاء والمحبين. ولم نعرف عن حقيقتهم إلا عن طريق تلك المخيلة المتفردة والظاهرة الحاضرة في شكسبير.

خلاصة القول ،كان شكسبير الآن معنا أكثر حداثوية من غيره ، وقد لامس الكثير من منهج السورياليين في الكثير من أفكاره. فهو يرسم الحلم من لا وعي الشخصية ويضعه على المسرح، ويحاكي التخيل والخيال و يوظفه واقعيا ويعطيه حضورا تاما ويحول مكنوناته اللاشعورية إلى شعور يحرك فيه حالات نفسية غريبة تمر بها شخصيات تراجيدية عظيمة، ومثالنا : رؤيا الخناجر..السير في المنامات.. أحلام اليقظة.. رؤى الأشباح.. طلاسم وشعوذة السحرة..محاكاة الجماجم والولوج إلى عبثية الكون.هذه كلها كانت نتيجة لقيم الفطرة التي فلسف في ضوئها شكسبير فكرته العامة فلا عجب في أن تتفجر صور ورؤى ورموز أخرى عند المبدعين من مخرجي المسرح الأوربيين والعرب، والشباب المثقف الذي يمتلك تراكم معرفي عال، في أن يشتغل في التجريب والطليعية ، وفي استحضار صور إبداعية من فضاء شكسبير الرحب لمعالجة رؤاه برؤى جديدة، فهوى الباحث مع عمق الرؤيا وأصالة الإبداع وجديد التصورات . ولعل أفضل ما أختم به موضوعة العقل هو ماجاء به أرسطو عن العقل والذي شرحه الدكتور مصطفى النشار: " فقد اعتبر أرسطو أن العقل هو آخر ملكات الإنسانية ، بل عده الهدف والغاية التي من أجلها نشأ الإنسان ، وهو يقصد من هذا بالطبع أن استخدام العقل في التفكير والأحكام والبراهين هو ما يشكل ماهية الإنسان وبالتالي الغاية من وجوده. " . ١٨ . من خلال التعرف على مشكلة البحث والتي هي نفسها كانت في عنوان البحث وجد الباحث أن ليس من السهل أن يتفق النقاد عن مدى أهمية المشكلة التي يحملها

البحث وذلك لسببين .الأول هو أن نوعية البحث جديد على النقد التقليدي الذي يرى في شكسبير مؤلفا دراميا يعود عقله إلى القرن السادس عشر. ولكن هذه بحد ذاتها مشكلة دعت المهتمين بدراسة شكسبير وكأنه يعيش معنا لما يمتلك من مرجعية ثقافية حيث تحمل منتجاته الدرامية نظاما معرفيا يفتح الباب أمام الباحثين على تناوله من عدة زوايا وأبواب . أما السبب الثاني شرعية العقل والثقافة التي جعلت شكسبير معاصرا في عقول المفكرين المعاصرين يعود إلى موضوعاته التي كتب فيها عن النفس والإنسان لا تخضع لمقاييس الزمن السياسي والاجتماعي ولهذا كانت الفطرة والغريزة والدافع في صراع مع العقل ومنعطفاته التي جرت على شخوصه و منجزه الدرامي ومازالت تجري على الإنسان في زمننا الحالي إذ لم يتوقف الإنسان عن الحب أو عن المؤامرات والدمار وحب المال والسلطة والخديعة. ولذا فكانت نتائج الباحث لتناول الفطرة والعقل الشكسبيري نتائج عالمية تبعا لوظائف ودوافع الإنسان عموما سواء كان مكانه في أقصى مناطق الأهواز أو في أفريقيا وأوروبا.

أما نتائج البحث التي توصل إليها الباحث، أكدت على تطابق المعاني بين الدال والمدلول وتحديد علة الألم التي رافقت عطيل ، هاملت، ماكبث وبقية الأبطال الذين شخصهم شكسبير وحملهم (كاريزمات) في فطرتهم وعقلهم مما جعلهم أبطالا يخوضون صراعا مع العالم وتكون بذلك أفعالهم متشابهة معنا في البحث عن مصائرهم ومصائرنا وترتبط برابط المعنى الذهني ورمزه اللغوي في الحدث القائم عند كاريزمات شكسبير وكاريزمات شخوصنا الواقعيون في واقع حياتنا.كما اعتمد علماء وفلاسفة علم النفس والاجتماع على أخذ نماذج من شخوص وأبطال شكسبير الذين صنعتهم الأفعال الدرامية وقياس دوافعهم كمعايير ونماذج للدراسة والتحليل وكان شرعية اختيارهم جاء نتيجة أفعالهم ودوافعهم التي قادتهم إلى نهاياتهم وإسقاطها على الواقع المعاش حديثا، ولعل مشكلة هاملت ، ماكبث ، والليدي ماكبث دليلا وبرهانا على ذلك . أما النتيجة الأخيرة التي حققها البحث هي

إلغاء مناطقية الزمان والمكان من خلال الظواهر النفسية والعقلية التي جاءت عن طريق شخوص وأبطال شكسبير ونقلها إلى العالمية أو الأممية تبعا للحدث الذي قد يتعرض له الفرد في أي مكان وزمان ، حيث استفاد الباحث في تعزيز نتائجه من حديث الرسول محمد (ص) في باب الفطرة وعلى ملاحظات بحثية عند الفلاسفة أمثال : أرسطو ، أدلر ، ديكارت والفارابي، وبما أن العقل هو مركز الوعي والتأمل يرى الباحث في نتائجه أن شكسبير لعب فكريا ومن خلال عقله الأوحد على كيفية توزيع مخرجات ذلك العقل على أبطال مسرحياته التي اشتغلت أكثر من غيرها ، مما جعلها تصطدم بعقول أخرى شريرة دفعت عطيل ، هاملت ، روميو في الوقوع بحبائل عقول أكثر إبليسيه منهم وهذا ما يشير له التاريخ البشري في فن الممكنات السياسية التي تتصارع فيها العقول الفائزة بالنصيب الأعلى وبغيرها المندرسة تحت نظام ما.

إن المنتج الثقافي الشكسبيري والمتمثل بأعماله الدرامية مازال حاضرا معنا لأنه عمق من لحمة الفطرة أو الغريزة وسداها الموفق مع العقل والذي ينتج عن شرعية معرفية عميقة الطرائق الفكرية والمنسجمة مع ما تعيشه النفس البشرية لمعطيات الماضي والحاضر والمرتبط بالموروث الثقافي المجتمعي والإنساني و لذا يبقى شكسبير وكما أسلفنا رجلا لكل العصور فهو مؤلفا مسرحيا ومفكرا وباحثا في النفس البشرية من خلال خوضه في جميع ما تنحو اليه فطرة الإنسان ونتائج عقله والله الموفق.

الهوامش

١. صحيح البخاري، ١٢٩٦.
٢. كارل يونغ ، البنية النفسية عند الإنسان ،ص٧٠.
٣. زين الدين المختاري ، المدخل إلى نظرية النقد النفسي ، ص٢٢
٤. شكسبير ، عطيل . ص٤٨٨.
٥. شكسبير ، هاملت . ص١١١.
٦. فرانك م . هوايتنج ، المدخل إلى الفنون المسرحي ، ص٦
٧. د. حيدر غيبة، هكذا تكلم العقل/المفهوم العقلاني للدين ، ص٣٥
٨. ابن منظور ، لسان العرب ، ص
٩. زين العابدين بن الحسين التونسي ، ص٣٩٨.
١٠. د.مختار الفجاري ، نقد العقل الإسلامي عند محمد أركون، ص١٠٦-١٠٧.
١١. شكسبير ، هاملت . ص
١٢. شكسبير ، عطيل . ص٥٥٠.
١٣. شكسبير ، عطيل . ص٦٠٣.
١٤. شكسبير ، مكبث. ٧٧٧.
١٥. د.مصطفى النشار ، نظرية المعرفة عند أرسطو ، ص
١٦.رينيه ديكارت، مقال في المنهج، ت: محمود محمد الخضيري، ص ٣-٤
١٧د. علي الوردي ، وعاظ السلاطين ، ص ١٨ .
١٨ -د.مصطفى النشار. نظرية المعرفة عند أرسطو،ص ٧٠.

مصادر البحث

البخاري ، صحيح
النشار ، د.مصطفى: نظرية المعرفة عند أرسطو، ط٢ ، كلية الآداب – جامعة القاهرة، دار المعارف ، مصر . ١٩٩٥.
أرسطوطاليس، كتاب في الشعر (فن الشعر)، (نقل أبي بشر متي بن يوسف القباني من السرياني إلى العربي)، حققه مع ترجمة حديثة:الدكتور شكري عياد ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة، ١٩٦٧.
المختاري ، زين الدين : المدخل إلى نظرية النقد النفسي ، إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٨.
التونسي ، زين العابدين بن الحسين: المعجم المدرسي ، دار الفارابي للمعرفة ، دمشق ، سورية ، ٢٠٠٦.
الوردي، د. علي : وعاظ السلاطين ، ط٢، دار كوفان- لندن ، توزيع دار الكنوز الأدبية، بيروت – لبنان، ١٩٩٥.
جبرا، إبراهيم جبرا : وليم شكسبير المآسي الكبرى (هاملت، عطيل، الملك لير، مكبث)، ترجمة وتعريب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ٢٠٠٠.
ديكارت، رينيه: مقال في المنهج ، ت/محمود محمد الخضري ، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٩٨.
غيبة ، د. محمد: هكذا تكلم العقل، (المفهوم العقلاني للدين)، ط٢، دار الطليعة، بيروت- دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٣.
هوايتنج ، فرانك م : المدخل إلى الفنون المسرحية، ت/ كامل يوسف وآخرون ، دار المعرفة، القاهرة ، ١٩٦٠.